

الجملة العربية بين الغاية والاعمال

للدكتور عليان محمد الحازمي

تمهيد :

لعلنا لا نقرر مبدأ جديداً أو نعطي تصوراً مغلوطاً حين نقول : إن الجملة هي الأساس الأول الذي يجب أن يعرف في أي لغة من اللغات يراد تعلمها : إذ أنها المنطلق الذي يبدأ منه لفهم ما يقال وإيصال ما يريد أن يقوله المتحدث ، ولكي تتم عملية الكلام واضحة وجلية لا بد من توفر ما يأتي :

متحدث ، ومستمع ، أو صورة مكتوبة للحديث لتقرأ . فصورة الحديث المكتوبة هي الحامل والناقل لأفكار المتحدث ، وهي ما يطلق عليه اصطلاحاً الجملة . فالجملة : صورة لفظية منقولة الى السامع عن صورة ذهنية في ذهن المتكلم .

ولكي تكون الصورة الذهنية التي أدلى بها المتحدث واضحة ؛ لا بد أن تكون الصورة اللفظية المعبر بها تامة ومفهومة يحسن الكسوت عليها .

يقول ابن جني « أما القول فأصله أنه كل لفظ مدل به اللسان تاماً كان أو ناقصاً ، فالتام هو المفيد . . أعني الجملة وما كان في معناها من نحو : صه ، وايه ، والناقص ما كان بضد ذلك^(١) » .

(١) الخصائص ج ١ ص ١٧

ولما كانت الجملة هي أساس وحدة الكلام في كل اللغات كان لا بد أن تحظى بعناية واهتمام الدارسين والباحثين شرحاً وتحليلاً وتعريفاً : غير أننا لا نريد أن نعرض هنا لدراسة الجملة في اللغات الأخرى ، فهذا بحث لا يعيننا الآن لكن نتساءل : ما نصيب الجملة العربية من اهتمام اللغويين ؟

من المعروف أن الدراسات اللغوية نشأت وترعرعت في ظل الدراسات الإسلامية ؛ فمنها استمدت كثيراً من أصولها ومصطلحاتها حيث كان الغرض من الدراسات اللغوية هو المحافظة على القرآن الكريم وعدم قراءته ملحوناً . فمبدأ المحافظة على سلامة اللغة التي نزل بها القرآن الكريم حداً باللغويين في تصورنا إلى تصحيح الأخطاء في النطق وفي تركيب الكلام وبنية الكلمة وقواعد الاعراب ، هذا لا يتأتى إلا باستنباط ضوابط من الكلام العربي وجعلها أصولاً تحثي لتساعد على جعل اللغة ملكة في النفوس .

إن ابن جني هنا يفرق بين نوعين من الصور اللفظية :

١ - صورة تامة يستفاد منها فكرة معينة ذات دلالة محددة وهو ما عبر عنه النحويون بقولهم عند تعريف الكلام : « كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه ، ويسمى الجملة^(١) » .

٢ - صورة ناقصة لا تفيد ولا يستطيع السامع أو القارئ أن يستجلي منها فكرة واضحة أو دلالة معينة .

لذا كان ابن جني عظيمًا حين قرر مبدأه الذي يقول « كل كلام قول وليس كل قول كلاماً^(٢) » ، فالكلام عنده ما كان من الألفاظ قائماً برأسه مستقلاً بمعناه . أما القول فهو بخلاف ذلك وانه بهذا قد سبق علماء اللغة المحدثين أمثال دي سوسور .

يقول ابن جني « إن الكلام إنما هو في لغة^(٣) العرب عبارة عن الألفاظ القائمة برؤوسها ؛ المستغنية عن غيرها ؛ وهي التي يسميها أهل هذه الصناعة الجمل على اختلاف تركيبها » .

(١) شرح المفصل لابن يعيش ج ١ ص ٢٠ (٢) الخصائص ج ١ ص ١٧ (٣) المصدر نفسه ص ٣٢

من هذا المسار والمنطلق انطلقت الدراسات اللغوية وكانت في بدايتها على شكل ملاحظات نمت فيما بعد واكتملت بظهور المراكز الثقافية اللغوية كمدينة البصرة والكوفة وكانت تنظر إلى الجملة العربية على أساس أنها وحدة الكلام . فتناولها بالدرس والتحليل والنقد والتععيد ، ولو قدر لتلك الدراسات أن تستمر في مسارها الذي سلكته لكان من المحتمل جداً أن نرى حال الدراسات اللغوية غير ما آلت إليه حين دخلها المنطق فأفسد جمالها ووروثها وعدل بها إلى العناية بالناحية الشكلية الصورية .

كيف بدأ الدرس اللغوي :

إن المتتبع لتاريخ الدراسات اللغوية لا يملك إلا أن يسلم بأن كثيراً من الدراسات اللغوية الأولى قد ضاع أكثرها وطمست معالمها ، وإلا فأين دراسات أبي الأسود الدؤلي^(١) وغيره من اللغويين الأوائل مثل : نصر بن عاصم ، وعنبسة بن معدان ، وعبد الرحمن بن هرمز ، ويحيى

ابن يعمر ، وميمون الأقرن .

بل أين كتب عيسى بن عمر الثقفي الذي أشاد الخليل بن أحمد بعمله وبمؤلفيه « الجامع والاكمال » حين قال : (٢)

بطل النحو جميعاً كله

غير ما أحدث عيسى بن عمر

ذاك إكمال وهذا جامع

فهما للناس شمس وقمر

تلك الأعمال اللغوية التي دونت فيها الأسس الأولى لدراسة الجملة العربية وأساليبها كانت المصدر والمستقى في اعتقادنا للخليل ولسيبويه ولفراء .

إن فقدان تلك الدراسات تقطع علينا بلا

شك معرفة بداية الدرس النحوي ، وتجعلنا بمعزل عن معرفة الأصول الأولى للدراسة اللغوية ؛ فلو وصلت إلينا لاستطعنا على ضوءها أن نقوم ونحدد مناهجها ، ونعرف مدى عنايتها أو عدم عنايتها بالجملة .

ولكن على الرغم من ذلك كله ، وعلى

(٢) الفهرست ابن النديم ص ٦٨ - ٦٩

(١) ذكر السيرافي في كتابه أخبار النحويين البصريين أن أبا الأسود وضع كتاباً ص ١٩

الاستفهامية : ما أجملُ السماء ، والجملة
التعجبية : ما أجملُ السماء !

رأي الدكتور مهدي المخزومي في عناية
النحاة بالجملة :

يرى الدكتور مهدي المخزومي في كتابه «في النحو العربي» أن النحاة أهملوا دراسة الجملة واهتموا بدراسة اللفظ ؛ يقول « ومع أن الجملة هي الوحدة الكلامية الصغرى ، وإن لها أهمية كبيرة في التعبير والافصاح والتفاهم كان حظها من عناية النحاة قليلاً جداً بل لم يعرضوا لها إلا حين يريدون أن يبحثوا في موضوع آخر ، ولم يعنوا بالبحث فيها إلا في ثنايا الفصول والأبواب ، ولم يشيروا إليها حين يضطرون إلى الإشارة إليها حين يعرضون للخبر الجملة والنعت والحال الجملة وموضوع الشرط الذي ينبنى على جملتين : جملة الشرط وجملة الجواب وغيرها من موضوعات متفرقة هنا وهناك ، ولا أعرف أحداً من النحاة عني بالجملة وأنواعها وأقسامها قبل ابن هشام في « مغني

الرغم مما يحيط بداية تاريخ النحو ودرسه من غموض نرى أن العناية بالجملة ووضوحها كانت الهدف الأساسي لوضع علم النحو ودراسته . فأبو الأسود الدؤلي لم يكن يعنيه من أمر الكلمة واعرابها إلا ارتباطها وصلتها بأجزاء الكلام الأخرى وتأثيرها في المعنى العام ، والروايات التي ذكرت عن أبي الأسود حين وضع بعض الأسس للدرس النحوي تشير إلى اهتمامه بالجملة . فقد ذكر « السيرافي » في كتابه « أخبار النحويين البصريين » الرواية التالية : يقال إن ابنته قالت له يوماً يا أبت ما أحسنُ السماء ؟ قال إي بنية ! نجومها . قالت إني لم اردأي شيء منها أحسن ، إنما تعجبت من حسنها قال إذن فقولي : ما احسنَ السماء !^(١) .

إن الرواية السابقة لتقفنا على أن الجملة وما تدل عليه كانت المنطلق لدراسة علم النحو . فأبو الأسود الدؤلي : فرّق بين نوعين من الجمل ، وأرشد ابنته إلى أن لكل نوع تركيباً معيناً يجب أن يراعى لتحديد المفاهيم والدلالات للجملة

(١) أخبار النحويين البصريين : السيرافي ص ١٩ .

الليبي^(١) .

أهمية دراسة الجملة ولا بد من توجيه العناية بها ؛ فدراسة صيغ وأساليب الجملة في رأينا هي النحو . والنحو في اللغات الحية يعني بدراسة أساليب التعبير المختلفة - كالاستفهام - والتعجب والتوكيد والنفي - الخ غير أن انتقاده للنحاة بأنهم لم يولوا الجملة إلا القليل من دراستهم فيه شيء من التجوز والتعميم . فالنحاة لم يهتموا بدراسة الجملة إلا حين تأثروا بالمنطق الصوري وذلك حين ترجمت كتب الفلسفة اليونانية ، فحاولوا إدخال تقسيمات أرسطو وتعليقاته على الدرس النحوي ، مما جعل درس النحو يثقل بتعليقات كان النحو عنها في غناء . قال أبو علي الفارسي منتقداً الرماني « إن كان النحو ما يقوله أبو الحسن الرماني^(٢) فليس معنا منه شيء ، وإن كان النحو ما نقوله فليس معه منه شيء » وقال بعض أهل الأدب : « كنا نحضر عند ثلاثة مشايخ من النحويين فمنهم من لا نفهم من كلامه شيئاً ، ومنهم من نفهم بعض كلامه دون البعض ، ومنهم من نفهم جميع كلامه . فأما من لا نفهم من كلامه شيئاً فأبو الحسن

وهذا الإهمال في رأي الدكتور المخزومي جاء نتيجة لاهتمام النحاة بظاهرة الأعراب وتفسيرها وفكرة العامل ؛ حيث قصر النحاة دراستهم على فكرة العامل وأثره ، فاهتموا بالكلمات بوصفها معمولات ، فلم يتعرضوا لدراسة الأساليب للجملة وأحوالها المختلفة .

من نص د . مهدي المخزومي السابق نستنتج ما يأتي :

أولاً : أن دراسة الجملة لم تكن الأساس الذي قامت عليه الدراسات النحوية .

ثانياً : أن الاهتمام كان موجهاً للألفاظ في دراسة النحو .

ثالثاً : إذا حدث ووجه النحاة خلال درسهم النحوي بعض الاهتمام بالجملة فإن هذا الاهتمام أتى عرضاً لم يكن نابغاً عن منهج معين ومحدد ، واقتناع بأهمية الجملة .

ونحن إذ نوافق د . المخزومي على

فأمهات الكتب الأوائل هي الأساس ،
ولا بد من تعويد الدارسين على البحث فيها
والرجوع إليها .

رأي فؤاد حنا ترزي :

لفؤاد حنا ترزي رأي شبيه برأي الدكتور
مهدي المخزومي حول عناية النحاة
بالجملة ، فلقد وصف في كتابه « في
أصول اللغة والنحو » بأن العبارة العربية لم
تنل حقها بصورة عامة من عناية النحاة ؛
حيث « غدت البحوث المتصلة بها ناقصة
ومجزأة في الغالب » ، ويعزو الدكتور فؤاد
السبب في ذلك قائلاً : « لقد حدد الغرض
الأساسي الذي دون لأجله النحو وهو شيوخ
اللحن ، المجال الذي دارت فيه معظم
الدراسات النحوية ؛ فلقد تركزت هذه
الدراسات بشكل رئيسي على ما ينتاب
أواخر الكلم من تغيير في الحركات
الإعرابية أو الحروف ، وعلى العوامل التي
تؤدي إلى هذا التغيير » (٣) .

ونحن لا ننكر أن النحاة ركزوا في
دراساتهم على معرفة ما ينتاب أواخر الكلم

الرماني ، وأما من نفهم بعض كلامه دون
البعض فأبو علي الفارسي ، وأما من نفهم
جميع كلامه فابو سعيد السيرافي (١) .

والدكتور مهدي المخزومي اعترف
بفضل النحاة الأوائل حيث قال مشيداً :
« لعل الرجوع إلى أقدم الكتب التي ألفت
في (٢) في هذه الدراسة أعني « كتاب
سيبويه » وكتاب « معاني القرآن » للفراء
يوضح لنا الفرق بين نهج النحاة الأوائل ،
ونهج النحاة المناطقة الذين أبعدها في
تجميد هذه الدراسة وإثقالها بالقيود .

إن فكرة الرجوع إلى المصادر الأساسية
الأولى لدراسة النحو ككتاب سيبويه
ومعاني القرآن للفراء التي أشار لها الدكتور
مهدي المخزومي للعودة بدراسة النحو إلى
مساره الصحيح ، والتي حاول أن يصفها
في كتابه في « النحو العربي » لبداية يجب
أن تتضافر عليها جهود المعنيين بالدراسات
اللغوية ليعود درس النحو إلى أصالته ،
وينقى مما علق به من شوائب التعليقات
المنطقية .

(١) نزهة الألباء. ص ٢٣ (٢) في النحو العربي. ص ٣٥ (٣) « في أصول اللغة والنحو » ص ١٩٤ .

تتجلى قيمته بانتظامه في سلك الجملة حينئذ تحدد مكانته وموقعه من الجملة فاعلاً كان أو مفعولاً ، وقع منه الحدث أو وقع عليه الحدث .

والأمثلة على عناية سيوييه بالجملة ومعناها كثيرة وتحتاج في رأينا إلى مزيد من البحث والاستقصاء لإخراجها في كتاب . . فمن ذلك قوله في باب تخبر فيه عن النكرة بنكرة (٢) :

ما كان أحد مثلك : حسن الإخبار هنا عن النكرة لأنك تنفي أن يكون أحد مثله والمخاطب في حاجة إلى أن يعلم مثل هذا كان رجل ذاهباً : ليس فيها شيء تعلمه المخاطب كان جهله .

كان رجل من آل فلان فارساً : حسن الإخبار هنا لأن المخاطب قد يحتاج أن يعلم أن ذلك الفارس من آل فلان

كان رجل في قوم فارساً : لم يحسن الإخبار هنا لأنه لا يستنكر أن يكون في الدنيا فارس وأن يكون من قوم .

من تغيير ؛ غير أن هذا الاهتمام في مفهومنا إنما هو تركيز لمعرفة دلالة الجملة ووضوحها . فسيوييه لم يعن باللفظ لذاته وباعتباره لفظاً ، وإنما كانت العناية موجهة إليه حيث إنه يمثل جزءاً رئيساً في إطار الكلام .

فالألفاظ لا تتحدد معانيها ما لم ترد في جملة ؛ فلقد قال في باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعول وأعطانا لذلك مثلاً « ضرب عبد الله زيداً » وعلق قائلاً « . . . وانتصب زيد لأنه مفعول به تعدى إليه فعل الفاعل وإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول ؛ وذلك قولك : ضرب زيداً عبد الله ، لأنك إنما أردت به مؤخرأما أردت به مقدماً ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه وإن كان مؤخرأ في اللفظ ، فمن ثم كان حد اللفظ فيه أن يكون الفاعل مقدماً وهو عربي جيد كثير كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم بيانه أعنى ، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعينانهم (١) ، وهذا التحليل يوضح لنا اهتمام سيوييه بالجملة ككل ، فاللفظ إنما

بل إن سيويه صوّر لنا الأساليب المختلفة لنفي الفعل ومعانيها ووجوه استعمالها ؛ كل ذلك في عرض موجز مدعم (٣) بالأمثلة ، فلا عجب إذاً حين نقول : إن سيويه دائماً يبحث في تركيب الجملة ومعانيها . ففي « باب المسند والمسند إليه » وضح بأنهما ما لا يستغني واحد منهما عن الآخر ولا يجد المتكلم منه بدءاً (٤) وفي « باب الاستقامة من الكلام والأحالة » ذكر أنواع الكلام وبيّن المستقيم الحسن ، والمحال ، والمستقيم الكذب ، والمستقيم القبيح (٥) ، والمحال الكذب . لذا نرى قول الدكتور فؤاد حنا ترزي « أن الجملة العربية حظيت بعناية رجال البلاغة أكثر من رجال النحو » أمراً يدعو للغرابة . فرجال النحو هم أولاً وأخيراً رجال بلاغة ولا فرق بين من يعنى بالنحويين من يهتم بالبلاغة ، فعلم اللغة وحدة واحدة لا يمكن أن تتجزأ ، ويجب أن تكون كذلك . فعبد القاهر الجرجاني نظر إلى البلاغة عندما صاغ « نظرية النظم » من

الأمثلة السابقة تدلنا على مدى اهتمام سيويه بالجملة ومعاناته لفهم ما تدل عليه من معنى ، وتوجيه لما يحسن منها وما يستقبح . وأكد أجزم أن المدرسة اللغوية الحديثة « التحويلية التي يتزعمها تشومسكي » (١) نجد جذورها واضحة المعالم عند سيويه . يقول بعد ما بين أن الأصل والقاعدة في لفظ أحد : لا تكون إلا في موضع نفي ، موضحاً معاني الجمل الآتية : (٢)

الجملة في حالة الإثبات	معناها
أنا رجل	واحد في العدد
أنا رجل لا امرأة	بيان للجنس
أنا اليوم رجل	أي في قوته ونفاذه
-	-

الجملة في حالة النفي	معناها
ما أنا رجل	أي أنا أكثر من ذلك
ما أنا رجل	أي امرأة أنتك
ما أنا رجل	أي أنا الضعفاء
ما أنا أحد	نفيّاً عاماً

(٤) سيويه ج ١ ص ٧

(٥) سيويه ج ١ ص ٨

(١) Aspects of the theory of Syntax

(٢) سيويه ج ١ ص ٢٧

(٣) سيويه ج ١ ص ٤٦

وجهة نحوية ؛ حيث أكد ان المعنى لا يكون بليغاً إذا كانت أجزاؤه مضطربة لا نحويها ، يقول : « معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض ^(١) » . ويقول : « إن الالفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الاعراب هو الذي يفتحها ، وإن الأغراض كاملة فيها حتى يكون هو المستخرج لها ، وانه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام

ورجحانه حتى يعرض عليه والمقياس الذي لا يُعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه ^(٢) . . . »

من هنا نرى أن الاساس الذي من أجله قامت الدراسات اللغوية وفي مقدمتها « علم النحو » هو معرفة صيغ الجملة العربية وأساليبها المختلفة وما تدل عليه من معان .

الدكتور عليان محمد الحازمي

المراجع

أولاً : العربية :

- | | |
|--------------------------|--------------------------|
| الخصائص | ١ - ابن جني |
| المقدمة | ٢ - ابن خلدون |
| نزهة الألباء | ٣ - ابن الأنباري |
| الفهرست | ٤ - ابن النديم |
| شرح المفصل | ٥ - ابن يعيش |
| في أصول اللغة والنحو | ٦ - ترزي (فؤاد حنا) |
| الكتاب | ٧ - سيويه |
| أخبار النحويين البصريين | ٨ - السيرافي |
| أسرار البلاغة | ٩ - الجرجاني عبد القاهر |
| دلائل الإعجاز | ١٠ - الجرجاني عبد القاهر |
| نشأة النحو | ١١ - الطنطاوي (محمد) |
| في النحو العربي | ١٢ - المخزومي (مهدي) |
| طبقات النحويين واللغويين | ١٣ - الزبيدي |
| أئمة النحاة في التاريخ | ١٤ - غالي (محمد محمود) |

ثانياً : - الأجنبية :

- | | |
|---------------------|---------------------------------|
| 1- Bloomfield L. | Language |
| 2- Chomsky. N. | Aspects of the Theory of syntax |
| 3- Chomsky .N. | Syntactic Structures |
| 4- De Saussure . F. | Course in general Linguistics |
| 5- Potter. S. | Modern Linguistics. |